قسنطينة في العهد الحفصي ؛ محور صراع وتنافس بين دول المغرب الاسلامي

أ. علال بن عمر

جامعة الشهيد حمة لخضر/ الوادي

المقدمة:

أردت في هذا المقال التطرّق إلى إحدى كبريات مدن المغرب الأوسط، مدينة العلم والعلماء، قسنطينة الغرَّاء، التي عُرفت بتاريخها العتيق، القديمةِ قدَم نشأتها، شكَّلت منذ الأزلْ ريادةً إقليمية، فكانت عاصمةً سياسية وإدارية، ومركزًا تجاريا هامًّا في العهد القديم.

وفي العهد الإسلامي أصبحت المدينة منذ أن دخلها الإسلام، مركزا مهمّا لهذا الدين الحنيف الذي أضاء بنوره غياهب الظلام، فكانت منذ أن سطع فيها نور الإسلام نبْعًا فيَّاضا للغة القرءان؛ لا ينضب مدى الدهور والأزمان، صمدت كالطّود أمام الحوادث الجسام التي مرّت بها عبر تاريخها، منذ عهد الدولة الأغلبية إلى عهد الموحدين، وكانت خلال ذلك كلِّه متأثّرة بمجريات الأحداث، بل وصانعة لها، ومشاركة فيها في كثير من الأحيان، كما أنّها أسْهمت في ما ظهر في بلاد المغرب من مذاهب وأفكار دينية، وصراع فكري وحضاري، ساهم في إيناع الحياة الثقافية بالمنطقة كلّها، فمن صراع بين الدين الإسلامي وبين الموروث القديم، إلى ظهور مذهب الخوارج، ثمّ الصراع الشيعي المالكي بعد ذلك، وصولا إلى العقيدة الموحّدية، وكل هذه التطوّرات لم تغب عن مدينة قسنطينة؛ إذ كانت كلُّها تدور حولها، بل وتتجاذب معها أطراف الصراع في أكثر المحطات التاريخية.

وبدخول العهد الحفصي وهي الفترة المخصوصة بالدراسة، أصبحت مدينة قسنطينة عاصمةً إقليمية، وعُدَّت ضمن حواضر المدن الكبرى ببلاد المغرب الأوسط، وقُرِنت مع بجاية وتلمسان، بل أصبحت قاعدة حفصية ثانية بعد مدينة تونس، والعمق الإستراتيجي والاقتصادي للسلطة المركزية في الجهة الغربية، وإحدى قلاعها العسكرية المنيعة، خاصة على عهد سلاطين الدولة الحفصية الذين وصلوا للسلطة انطلاقا من قسنطينة نفسها، والذين كانوا ولاَّةً وأمراءً لها قبل ذلك، فحق لهذا التاريخ الحافل أن يتوِّج قسنطينة عاصمة للثقافة العربية والاسلامية وحق لنا نحن كمؤرخين أن نسلط الضوء على مثل هذه المحطات التاريخية التي صنعت مجد وطننا وأمتنا وما هذه العجالة إلا قطرة من بحر مجد قسنطينة العريق، وقد تطرقت فيها إلى ثلاث نقاط أساسية :

1- قسنطينة ومبايعة أهلها لسلطة الحفصيين ويتضح من خلالها مكانة المدينة عند سلاطين بني حفص وكيف أضحت عاصمة سياسية وحاضرة علمية نافست بجاية وتلمسان وتونس.

2- العصر الذهبي لقسنطينة في عهد أبي زكريا وولده البقاء.

3- قسنطينة والصراع الخارجي وفيه تظهر مكانة المدينة من خلال مزاحمة المرينيين والزيانيين للحفصيين ورغبتهم في السيطرة على المدينة من خلال غزواتهم وتوسعهم على حساب الدولة الحفصية وإن كان لذلك أثرا سلبيا فإنه أثر أيضا إيجابا من خلال التواصل العلمي والثقافي خاصة من جانب المرينيين .

أولا: مبايعة سكان قسنطينة للسلطة الحفصية

لقد كان عصر الدولة الحفصية وريث عهد الموحدين، ورث عنه تدهورا سياسيا مريعا، كثُر فيه الصراع الذي وقع بين الدويْلات التي قامت بعد سقوط دولة الموحدين، وعلاوةً على ذلك وعلى المستوى الخارجي تكالُبِ الصليبيين على العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً، لكن كل ذلك لم ينعكس كليا على الوضع الثقافي الذي بقي مفعما بالحيوية والعطاء، محافظا على مساره المتجدّد منذ العصر الموحّدي، كما أن رجال السياسة والدولة في العهد الحفصي، لم تشغلهم الخلافات السياسية عن القيام بواجبهم المنوط بهم إزاء الحركة العلمية، من تشجيعٍ للعلم وبناءٍ لمؤسساته، وهو ما سيتضح من خلال ما سيأتي:

1- قسنطينة تبايع السلطة الحفصية:

كانت قسنطينة من أوائل الأقاليم المبايِعة للسلطة الحفصية، فبعد أن رُسِّمَت معالم الدولة في عهد **أبي محمد عبد الواحد** (603هـ -618هـ /1206م-1221م)- الذي قَبِـل عرض الخليفة الموحدي محمد الناصر(595هـ-610هـ/1198م-1213م) بولايته على إفريقية ليسُدّ ثغرها-، تمّ تأسيس أركانها في عهد ابنه **أبي زكريا يحي الأول**(624 هـ - 647هـ /1226م-1249م)؛ والذي خلع طاعة الموحدين ونقض بيعة الخليفة أبي العلا إدريس المأمون الموحدي(626هـ- 630هـ/1228م-1232م)، وأقام الخطبة باسم الإمام المهدي و الخلفاء الراشدين فقط، وتمّت له المبايعة من طرف أهل القيروان يوم 18 رجب 625هـ /24جوان 1228م، وعند وصوله إلى تونس جدّد بها البيعة ، ثم اتخذها عاصمة له[1]، لينهض السلطان الحفصي بعدها لإقرار سلطته في البلاد التابعة لنفوذه، فأوّل منطقة سار إليها مدينة قسنطينة، وعند وصوله فرض عليها الحصار أياما عديدة، حتى دخلها دون عناء واستولى عليها صلحا[2]، ثم أخرج منها والي الموحدين ابن أبي عبد الله بن يعقوب المنصور، وعندها بايعه أهلها وأعيانها ووجهاؤها على رضًى منهم، وكان على رأسهم الشيخ أبو علنّاس الصنهاجي

(توفي آخر شعبان 626هـ /1229م)، وذلك يوم الخميس 26شعبان 626هـ/ 1229م[3]، ثم انتقل بعدها لإخضاع بجاية التي سرعان ما أذعنت له، وقبض أبو زكريا على واليها وبعث به مع والي قسنطينة المخلوع إلى تونس[4]، وكان ذلك التاريخ تاريخ عهد جديد لقسنطينة، رفع من مكانتها، وأعلى من شأنها، وأعاد لها ما فقدته من نفوذ إقليمي بالمغرب الأوسط في عهود سابقة، فأصبحت بذلك القاعدة الثانية للحفصيين بعد العاصمة تونس، وعاصمة الإقليم الغربي للدولة، والعمق الاستراتيجي للسلطة المركزية، وقد زادت حظوة عند سلاطين و أمراء بني حفص، حيث فضّل الكثير منهم الإقامة بها، لكونها حازت شرف ولادة العديد منهم ، ولمكانتها في البيت الحفصي كان يعيَّن على إمارتها ولي العهد ، أو أمير مؤهّل يتميز بالخبرة والحنكة السياسية والعسكرية[5].

وقد كان السلاطين كثيري الزيارة للمدينة وفي مقدمتهم مؤسس الدولة السلطان أبي زكريا يحي الأول الذي كان يرتادها دائما، بل ولا يتأخَّر عن قضاء حوائج أهلها، كما اتخذها –ومن جاء بعده من السلاطين– مقرّ أمنه، وملجأه في الظروف الحالكة خاصة أوقات الحروب نظرا لموقعها الاستراتيجي المحصّن[6].

وكما كانت قسنطينة أمانا لأبي زكريا في حياته كانت له كذلك بعد مماته، إذ فاجأته منيَّته أثناء حركته لبونة في يوم الجمعة 29 جمادي الآخرة 647هـ /9 أكتوبر 1249م، ودفن بها ، ثم نُقل تابوته بعد ذلك إلى قسنطينة من أجل تأمين قبره، وذلك خوفا من عبث النورمان به عند غزوهم لبونة على الساحل[7].

2- قسنطينة وصراع الأمراء بعد عهد أبي زكريا يحي الأول :

وإذا كانت الدولة قد شهدت نوعا من الاستقرار في عهد السلطان أبي زكريا يحي الأول (624 هـ - 647هـ /1226م-1249م)، إلا أن الأوضاع بعده قد بدأت في التدهور، واضطربت سلسلة الحكَّام بسبب كثرة المنافسين لكل سلطان من أهل بيته، فنجد السلطان الحفصي يقوم بتسيير

شؤون دولته في تونس، وله مناوئين ومنافسين بأقاليمه الكبرى- خاصة ببجاية وقسنطينة-، وقد لا يحكم السلطان في تونس بل في بجاية أو قسنطينة، ويبايَعْ له بإحديها، في حين ينفرد بتونس سلطان منشق[8]، وكثيرا ما ارتقى أمراء الأقاليم -خاصة منهم أمراء قسنطينة -حتى أصبحوا سلاطين للدولة الحفصية، ومع كل ذلك فإن هذا الاقتتال الداخلي لم يهدم شيئا مميّا بُني قبل ذلك في مختلف المجالات حتى العمرانية منها [9]، وقد بدأ ت كل تلك الفتن في الظهور منذ عهد ابنه أبو عبد الله المستنصر.

ورث **أبو عبد الله المستنصر** (647هـ - 675هـ / 1239م-1277م) حكم الدولة الحفصية عن أبيه، فبويع له يوم وفاة هذا الأخير الجمعة التاسع والعشرين جمادي الآخرة سنة 647هـ/1249م، وابتدأ عهده بالفتن، بدْءًا بخروج عمِّه أبي عبد الله اللحياني عليه، كما توالت حركات التمرّد في دولته، خاصة بإقليم قسنطينة الذي ثارت به قبيلة "رياح" -كُبرى القبائل الهلالية العربية آنذاك - فتحرّك لها المستنصر سنة 666هـ/1267م وقضى على حركتها، وقد مدح الشعراء صنيعه ذلك، فأشعر أبو الحسين الأديب حازم قائلا -من البحر الكامل- :

وبلغتَ في الأعداء كل مراد وغدا لك التأييد ذا إسعاد
وغدا الأعادي من رياح عندما هبّت بنصركم الرياح كعاد[10]
طوّقتهم بضناك إذ لم يشكروا ما طُوّقوا من أنعُم وأيادي
فُتحت لهم أبواب كل كريهة فُتحت بيمنى اليُمن والإسعاد
إن كان قبل العيد وافى يومهم فلقد غدى من أيمن الأعياد[11]

وفي عهد السلطان أبي إسحاق إبراهيم(678هـ -681هـ /1279م – 1282) بدأ أمراء قسنطينة يظهِرون تمرّدهم وانفصالهم عن مركز السلطة بتونس، ومن الأحداث البارزة التي ظهرت في عهده وكان لقسنطينة العلاقة المباشرة بها ثورة بن الوزير.

كانت هذه الثورة سنة 679هـ/1280م، عندما ثار قائد قسنطينة وأميرها أبو بكر بن الوزير(678هـ-679هـ/1279م-1280م) في شهر شعبان من هذه السنة، واستبد بالحكم في المدينة، وأظهر لسكانّها جبروته وغطرسته، ولم يقف عند ذلك بل فعل ما فعله الواثق في استنجاده بالنصارى وبملك آرغونة طمعًا في الحكم والسلطة؛ فما كان من ملك آرغونة إلا أن تقدّم بجيوشه بحرًا ونزل بهم القل، لكنهم لم يتمكَّنوا من التقدم نحو الداخل نظرا لمقاومة أهل المدن الساحلية لهم، ولم يرض أهل قسنطينة بذلك فاضطُرّوا لمراسلة سلطان تونس لفكّ الظلم عنهم، واتهموا ابن الوزير بالردّة وأكله لحم الخنزير المحرّم، وردِّه للأوامر السلطانية[12]، لكنّ السلطان أبا إسحاق (678هـ -681هـ /1279م – 1282م) غضّ الطّرف عن ذلك، ولم يستجب لهم في بادئ الأمر، غير أن استمرار ابن الوزير في تعسّفه وظلمه لأهل المدينة، أجبر السلطان على التدخل، منتهجا في البداية أسلوب الحوار والمهادنة، راغبا في حل النزاع بالطرق السلمية، إلا أنه فشل في ذلك ولم يلق من غريمه قائد قسنطينة إلا عصياناً، فاضطُرّ لاستعمال القوة، وبعث بجيشه إلى قسنطينة، وتمكَّن من القضاء على ابن الوزير وأتباعه على يد الأمير أبي فارس والي بجاية، وقُتِل ابن الوزير يوم الجمعة 8 ربيع الأول 679هـ / 1280م[13]، وعادت المدينة بعد ذلك إلى السلطة الحفصية، وعُيِّن على رأسها والٍ آخر من الحفصيين وهو الشيخ أبا محمد عبد الله بن بوفيان الهرغي[14].

ثانيا:قسنطينة في عهد أبي زكريا وولده أبي البقاء.

بعد القضاء على فتنة الدعي أحمد بن مرزوق المسيلي[15] الذي خرج عن السلطان أبي إسحاق(678هـ -681هـ /1279م – 1282م)، بويِع **لأبي حفص ابن أبي زكريا** يوم الاثنين 24ربيع الآخر 683هـ /10جويلية 1284م سلطانا لدولة الحفصيين، وقد كان ملِكا صالحا، حكيما عاقلا، كريما متسامحا، يعظّم الفقهاء كغيره ويبرّهم ويبادر لخدمتهم[16]، وقد ابتعد

الفقيه الفاضل أبو القاسم ابن الشيخ عن مجلسه فترةً ، فكلَّف أحد الصلحاء بالتوسّط له في العودة لمجلسه، فقبل كلامه فقال السلطان: " حاجتنا إليه أكثر من حاجته إلينا وتفويت مثله، أو إبعاده لا فائدة فيه إلا الندم"[17] فأمّنه ووضعه في خدمته حتى وفاته، وقد كانت أيامه خير كلّها، أرجع للدولة أيام أبي زكريا الأول، وكان يختار ولاّته في الأقاليم من ذوي المكانة العلمية، والتضلّع في السياسة والحكم، ولا أدلّ على ذلك واليه على قسنطينة الأمير أبو زكريا بن أبي إسحاق[18].

1. قسنطينة في عهد أبي زكريا ابن أبي إسحاق :

رجع أبو زكريا من تلمسان بعد انتهاء فتنة الدعي، ثم سيطر على بجاية وقسنطينة وملَكَهما سنة 683هـ/1284م[19]، فأحسن فيهما السيرة وضبط أمورهما وطاوع أهلهما، وكان زاهدا في الدنيا، متّبعا سبيل الفقراء قريبا من الصوفية، ومن مظاهر ذلك أنه كان يرقّع ثوبه بيده، وكان إذا أُهديت له هدية صرفها عنه[20] وكان يقسِّم السنة بين البلدين، ويفضّل أهل قسنطينة على غيرهم ولا يفضِّل عليهم أحدا إلا بعد أن يأخذ الإذن منهم ويستسمحهم في ذلك[21]. وفي عهده ازدادت الحياة الثقافية نشاطا، وتنافست البيوتات في طلب العلم حتى لا تكاد تفرق بين بيت وآخر في المكانة العلمية، وقد ذكر ابن قنفذ في ذات السياق ما حدث في زيارة أهل قسنطينة وبجاية لأبي زكريا بعد برْئه من مرض أصابه، وهو إذ ذاك ماكث بجامع القصبة بمدينة قسنطينة، فورد عليه أهل بجاية، ثم طلع عليه جماعة من أهل قسنطينة، واجتمعت الطائفتان بجامع القصبة، وهو جالس في انتظارهم، ويذكر ابن قنفذ [22] بأن أبا القاسم ابن إبراهيم ابن أبي حي الحاجب جلس مع أهل قسنطينة بجامع القصبة، –ومنهم جدّ ابن قنفذ الشيخ علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ (ت 733هـ/1332م)–، وقال لهم الحاجب المذكور: مولانا السلطان يقول لكم– يقصد القسنطينيين– أنتم عندنا بالمكانة المعلومة، وهؤلاء فقهاء بجاية أضياف علينا وعليكم، فتُسلِّموا لهم في الدخول علينا قبلكم، إن طابت بذلك

نفوسكم فقالوا:"نعم"، وقاضي بجاية يؤمئذ الفقيه أبو العباس أحمد الغبريني [23] (ت704هـ1304م) وقاضي قسنطينة حينئذ الفقيه أبو محمد عبد الله بن الديم ، فدخلوا على السلطان على هذا الترتيب آخر البجائيين أوّل القسنطينيين، فسلّم البجائيون بترتيب ووقار وأدب مع قاضيهم وتزاحم القسنطينيون وقاضيهم كأحدهم، وكلٌّ منهم يريد أن يكون هو الموالي للسلطان في جلوسه، ولما اجتمع القاضيان قال الفقيه الغبريني للفقيه ابن الديم: رأيت أدب أهل بلدنا معي وأنت لا وقار لك مع أهل بلدك[24]، فردّ عليه القاضي ابن الديّم: السبب في ذلك أن فقهاءكم مُحْدَثُون في بلدكم، وهؤلاء كل بيت ترى أنها أرفع من الأخرى بأصالتها في بلدهم وقدم نعمتها، فسكت القاضي الغبريني سكوت النادم في قوله[25].

فقد كان عهد الأمير أبي زكريا إذن عهد العلماء والفقهاء ذكر ابن قنفذ في ذلك قوله: "سمعت بعض المشايخ الصلحاء يقول: اشتغل أولاد الأمير أبي إسحاق بالملك والدنيا ،واشتغل منهم الأمير أبو زكريا ببناء المدارس، واقتناء الكتب وجمعها، وضمّ أنواع العلوم لها حتى الوعظ، لِمَا أراد الله تخليد الملك في عقبه دون سائر إخوته، حين ألهمه الله لتخليد التلاوة وتدريس العلم وإقامة الذكر"[26]، ومن أعماله بقسنطينة في هذا المجال قيامه ببناء الجوامع وتوسيعها، مثل ما فعل بجامع القصبة والجامع الكبير، حيث اشترى من الحضر دورا مجاورة للجامع ووصلها بأرضه، كما زاد من سور القصبة وعبّد طرقها، إضافة لذلك قيامه ببناء مدرسة جديدة، وشجّع الطلبة على الالتحاق بها، كما بنى بالمدرسة مسجدا[27].

وحاول الأمير أبو زكريا احتلال تونس والسيطرة على الدولة الحفصية والإطاحة بالسلطان أبي حفص (683هـ-694هـ/1284م-1295م) لكنه فشل في ذلك ،فأعاد الكرة على عهد السلطان أبو عبد الله محمد (694هـ-709هـ/1295م-1310م) لكنه لم ينجح في ذلك أيضا،

فاكتفى حينها بملك قسنطينة، فكانت له ولولده أبي البقاء من بعده وتوفي الأمير أبو زكريا ليلة 27 من رمضان سنة 700هـ/1300م[28]

2. قسنطينة في عهد أبي البقاء بن أبي زكريا:

خلف الأمير أبو البقاء خالد منصب أبيه أبي زكريا في ولاية قسنطينة وبجاية، وسار فيهما على سيرته، ونهج نَهْجه، فخلَّد بهما مآثر عظيمة، وقد استقرّ الأمير خالد ببجاية وعيّن على قسنطينة حاجبه أبا القاسم بن أبي يحي عاملاً له، فأقام بها بعض الوقت يُدير شؤونها، حتى تمكَّن من كسْب أهلها، حينئذ نبذ طاعة أبي البقاء، وحمل من قصبة المدينة لواء المعارضة وأعلن استقلاله، فسمع الأمير خالد بذلك، فجهّز جيوشه وحاصر المدينة، حتى دخلها بمساعدة بعض أهلها الموالين له، وهرب منها أبو القاسم من جهة باب الوادي سنة 704هـ/ 1304م، وأقرّ الأمير خالد الأوضاع بها[29]، واستغل تلك الظروف في أخذ البيعة له من قسنطينة سلطاناً على الدولة الحفصية، ومنها انتقل إلى تونس، وعيّن على المدينة أبا الحسن محمد بن يوسف الهمذاني الأندلسي المعروف بابن الأمير، لكنّه لم يسْلم كغيره من فكرة التمرّد والانفصال، إذ سوّلت له نفسه الخروج عن مولاه وعصيانه، فأقام بقسنطينة ما كان مختصّا فقط بالحضرة من أبّهة السلطنة، فأحْدث ذلك في نفس السلطان أبي البقاء خِيفةً من إحداث انقلاب عليه، فتحرّك له من بجاية وحاصر قسنطينة، وبالاعتماد على الموالين له من أهل المدينة، دخلها دخول الفاتح وعلى رأسه التاج الملكي سنة 704هـ / 1304م[30]، وبقي أبو البقاء يتردّد على المدينة قائما على أعمالها، آخذا بنصيحة الشيخ علي بن حسن بن قنفذ(ت733هـ/1332م)- جد ابن الخطيب- الذي نصحه بأن يدير شؤون المدينة بنفسه، وبقي على تلك الحال حتّى رجع للحضرة عام 709هـ/1309م وقضى على السلطان أبي يحي أبي بكر ، وبويع له بتونس بيعة عامة في 709هـ /1309م، وكان ذاك الحلم الذي طالما راوده وراود أباه من قبله[31].

لكن سرعان ما بدأت دولة أبي البقاء في الانهيار، بعد انصرافه للذّاته وشهواته وتركه سياسة الملك وتسيير شؤون الدولة للجنود، ممّا عرّض ملكه للزّوال عل يد الأمير أبي يحي زكريا بن الليحاني(711هـ - 718هـ/1311م-1318م) الذي خرج عليه من طرابلس ومعه الشيخ أبو عبد الله محمد المزديوي، وعلى إثرها قُتل أبو البقاء في 2 جمادي الأولى 711هـ /1311م وبويع لأبي زكريا بتونس سنة 2 رجب 711هـ /1311م[32].

ولم يرض بذلك أمير قسنطينة أبو يحي أبو بكر بن أبي زكريا، وأراد الثأر لأبي البقاء، واعتمد في ذلك على أهل قسنطينة لكونها مسقط رأسه وموضع تربيته وتعلّمه، فتحرّك منها إلى تونس بجيش كبير حتى أجبر السلطان **أبا يحي زكريا** على الفرار، لكن أبا يحي أبا بكر لم يدخلها في المرة الأولى، فعاد للمدينة وقوّى جيشه وجدّد حركته وغزاها ثانية، وقد حاول اللّحياني مقاومته فلم يستطع، ودخل أبو يحي أبو بكر تونس وبايعه أهلها في 7 ربيع الآخر 718هـ/1318م[33].

ثالثا: قسنطينة و الصراع الخارجي

تعرّضت الدولة الحفصية في عهد السلطان **أبي يحي أبي بكر بن أبي زكريا** (718هـ-748هـ/ 1318م-1346م) إلى اعتداءات خارجية، وتوالت حملات النّصارى على مملكته، حتى اضطُرّ في إحداها إلى السّفر بأهله وماله وأساطيله للإسكندرية، لمتابعتهم وشقّ حصونهم، كما كان عهده عهد حروب كثيرة مع بني عبد الواد [34]وكذلك بني مرين ؛ وقد كانت قسنطينة بحكم موقعها الوسطي، مسرحا لتلك الصراعات، وعُرضةً لمعظم الاعتداءات الخارجية التي تهدّد الدولة الحفصية من الجهة الغربية.

1- أعمال أبي يحي بقسنطينة وصراعه مع بني عبد الواد:

بعد أخذ البيعة لأبي يحي أبي بكر من مدينة تونس وانتقاله من قسنطينة إليها، استغلّ بنو عبد الواد غيابه عن المدينة فقاموا بحصارها، ولما وصل خبر

ذلك للسلطان أبي يحي رجع إليها من أجل فكّ الحصار عليها وتأمينها، ففرح أهل المدينة بقدومه وخرجوا في استقباله والتفوا حوله، مجدّدين الطاعة والولاء له، وراغبين أن يقبل منهم جميع ما على مُلْكهم مقابل نُصْرتهم[35]، وكان السلطان مدة الحصار مقيما بالمدينة، ولما اشتدّ الوقع على المدينة وأهلها، أراد السلطان الخروج منها رحمةً بأهلها وتجنيباً لهم للمكاره، إذ كان هو المقصود من الحصار لا الأهل ولا المدينة، فمنعوه من ذلك وطلبوا راحته واجتمعوا على مدافعة العدو، والتفّوا حول الأمير وحاشيته، فكان لا يسأل عن شيء إلا وجده[36]، وكانت المدافعة بالحجر الذي يُضرب به حتّى فرغ لأنه عدّتهم الوحيدة، ولقد كان لجد ابن قنفذ الخطيب الشيخ علي بن حسن بن قنفذ (ت733هـ/1333م) دورًا كبيرا في التفاف العامَّة على الأمير، وتحريض أهل قسنطينة على المدافعة[37] فسمع السلطان بذلك فأَثْنى عليه، ومازالوا كذلك حتى انفضّ الحصار، ورجع السلطان إلى إقليمه وحاضرته، ولما عاد لحاضرته أحضر بمجلس بيعته الثانية من قسنطينة علماء المدينة وفقهاءها وصلحاءها، وكان منهم والد جد ابن قنفذ لأمّه يعقوب بن عمران البويوسفي(ت717هـ/1317م)، ثم رتّب بعد ذلك أمور البلاد، وكان السلطان أبو يحي –بعد أن زال خطر بني عبد الواد– يكْثِر الجلوس مع معلِّميه وأساتذته؛ ومنهم قاضي المدينة أبو علي عمر الجمّال وهو قاضي بلد قسنطينة، وتحيط بالسلطان مجموعة من أطبَّاء قسنطينة وحكمائها و منهم الطبيب أبو علي حسن المراكشي الحكيم والطبيب العالم أبو يعقوب بن واندارس والطبيب ابن حمزة والد القائد العسكري السلطان أبو عبد الله بن الحكيم، وكان السلطان يسأل عن أحوالهم ويطمئن بنفسه عن شؤون دنياهم[38].

وكان أبو يحي يولي اهتماما كبيرا بالجامعين الأعظمين–الجامع الكبير وجامع القصبة– بقسنطينة، وكان متكفّلا بكل ما يخصّهما، وقد كان له ثقة كبيرة بالشيخ يعقوب بن عمران البويوسفي(ت717هـ/1317م) –والد جد ابن قنفذ الخطيب لأمه– لكونه يعتقد فيه، وفي أحد مجالسه –وبحضور الأطباء

الثلاثة –الذين ذكرناهم–، وضع الشيخ يده على السلطان وباركه وأمَّنه من القتل، ، فقال لهم السلطان: " الأمر قريب فيها فإن سيدي يعقوب وعدني أني أموت على فراش العافية"[39].

وكان السلطان لكثرة تردّده على قسنطينة يعرف أهلها بالعين والاسم ويسأل عن أحوالهم ويحلف لبعضهم عند لقائه بهم، ألاَّ ينزلوا عن مركوبهم،حيث كانوا يفعلون ذلك كلما رأوه إكراما له، وكان يقوم على ترتيب أمور المدينة بنفسه، ويصرف كل مهمّة فيها إلى أربابها ومن هم أهل لها، وينزل كل مسألة منزلتها، وكان لا يولّي عليها قاضيا، حتى يشهَد فيه بالخير من يوثَق بهم، ولمكانة المدينة عنده عيَّن عليها أبا عبد الله محمد وهو أعزَّ أبنائه له[40].

استخلف السلطان أبو يحي ولده أبا عبد الله محمد على قسنطينة[41]، وكان مولد ونشأة أبي عبد الله وتعليمه الأول بها، وكان مشهورا بالذكاء والفطنة، مهتمّا بالعلم وأهله، وقد ضبط أثناء ولايته أمور المدينة ونظّم شؤونها، وأقام الأحوال بها حتّى أصبحت كأنها إمارة مستقلّة، كما أمَّنها من أي اعتداء خارجي[42]، و يذكر ابن قنفذ أنّه خرج من حاشيته الفقهاء الثلاث؛ القاضي أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس توفي(787هـ/ 1385م) والشيخ أبو علي حسن بن خلف الله بن القنفذ توفي[43](750 هـ /1349 م) والفقيه الطبيب أبو علي حسن بن علي المراكشي[44]، وقد عرفت قسنطينة خلال عهد أبي عبد الله الولاء التام لحكم السلطان الحفصي، حتى كانت ملْجأً للسلطان نفسه من الفتن والاضطرابات التي كانت تحدث في مدينة تونس، كما ساهم الأمير أبو عبد الله محمد – إلى جانب أبيه – في محاربة أعداء السلطنة الحفصية، و توفي الأمير أبو عبد الله سنة 739هـ/ 1338م فغيّر أهل قسنطينة ثيابهم حزناً عليه وحسرة على فقدانه، وقد ترك من الأولاد سبعة، وخلفه ابنه أبو زيد في إمارة قسنطينة[45].

وبعد وفاة أبي عبد الله دخلت قسنطينة عهدا جديدا وطوراً آخرا من أطوار تاريخها، حيث خلّف الأمير السابق سبعة من الذكور، وصل التنازع بينهم

ذروته، حتى سقطت المدينة في يد القادة والمملوكين والحجَّاب، وخرجت عن سلطة الأمراء. وقد بدأ النزاع بين الأخوة منذ قسمة تركة الأمير أبي عبد الله ، رغم تدخّل الشيخ حسن بن قنفذ(ت750هـ/1349م) -والد ابن قنفذ الخطيب- محاولا فض النزاع بينهم، بتقسيمه لتركة الوالد عليهم بالتساوي ووفق ما قرّره الشارع لكلّ منهم، فأعطى كل منهم حقّه، إلا أنّ الخلاف بينهم بقي مستمرا وتحول إلى نزاع سياسي، ومما زاد الطين بلّة وفاة السلطان أبي يحي أبي بكر سنة 747هـ/ 1346م[46]، وتسمَّى هذا العام بالذات في قسنطينة بعام المثقفين، ذلك لأن أبناء أبي عبد الله الثلاثة خرجوا مطالبين بالعرش بعد وفاة جدهم السلطان أبي يحي المذكور(717هـ-747هـ/1317م-1346م)، فبادر المزوار القائد نبيل –قائد قسنطينة-إلى إغلاق باب القصبة، وجهَّز جيشا وقام باعتقال الأبناء الثلاثة، فظلّوا في السجن إلى أن أطلق سراحهم السلطان المريني أبو الحسن(731هـ-749هـ/1331م-1349م) عند احتلاله لمدينة قسنطينة عام 748هـ/ 1448م، وصرفهم إلى المغرب، كان ذلك أثناء حملته المشهورة على إفريقية واستيلائه عليها وعلى تونس[47].

2- غزو أبي الحسن المريني لقسنطينة:

غزوة السلطان أبي الحسن المريني(731هـ-749هـ/1331م-1349م) كانت في عهد السلطان الحفصي **أبي حفص عمر** بن أبي يحي (747هـ-750هـ/1346م-1349م)، فقد استغل أبو الحسن النزاع الأسري داخل البيت الحفصي، حيث افتكّ السلطان أبو حفص المذكور السلطة من أخيه – وليّ العهد- أبي العباس أحمد، ثم قام بقتْله[48] ، فاغتنم أبو الحسن فرصة السيطرة على الدولة الحفصية، مدّعيا الثأر لصهره أبي العباس المذكور، وتحرّك في صفر 748هـ /1347م متوجّها نحو إفريقية، بعد أن عيَّن ولده أبا عنان واليا على تلمسان وسائر المغرب الأوسط سنة 747هـ/1346م[49]، وقد احتلّ أبو الحسن في بادئ أمره بجاية، ثم توجَّه بعدها لمدينة قسنطينة، والتي اتجه لها في نفس الوقت السلطان الحفصي -أبي حفص عمر- بغرض الاحتماء

بها، وردّ الغزاة على مملكته انطلاقا منها[50]، ولكن لم يساعده في ذلك واليها خوفا من العاقبة، فرجع السلطان إلى إفريقية، وتبعه أبو الحسن عن طريق قائده ووزيره "حمُّو العسكري"[51]، ودارت بين الأخيرين معارك عدَّة، هُزِم الأمير الحفصي في الكثير منها ، وقتل في أحد المعارك في سنة 748 هـ /1347 م[52]، وعندها ملك السلطان أبو الحسن تونس ودخلها في 8 جمادي الآخرة من سنة 748هـ/1347 م[53].

ولما سيطر أبو الحسن على إفريقية، حاول الفضل بن أبي يحي صاحب بونة استرجاع ملك الحفصيين، انطلاقا من السيطرة على قسنطينة، فتحرّك من بونة إليها يوم الاربعاء 28ذي الحجة 748هـ /1347م، وانقلب الحال على من فيها من بني مرين، ودام على ما هو عليه حتى دخلت سنة 749هـ 1348م[54] والتي خطّيط فيها الفضل لدخول قصبة المدينة فسيطر على جوارها وصلّى الجمعة بجامع البلد،[55]، وجلس بالمقصورة ليرى عاقبة القصبة، وعندما لم يجد سبيلا للسيطرة عليها، استنجد بوالد ابن القنفذ الخطيب حسن بن علي (ت750هـ/1349م) وأرسله إلى حامية المرينيين يؤمّنهم على أنفسهم فاستأمنوه واستجابوا له، ودخل الفضل الحامية في عصر يوم الجمعة غرّة شهر محرم سنة 749هـ/1349م[56]، وأقام الفضل بالمدينة ثلاثة أشهر، نظّيم أحوالها ثمّ خرج إلى بجاية فأخذها من بني مرين وسعى بعدها لإعادة السلطنة الحفصية بتونس، وتوحيد المملكة الحفصية من جديد[57].

استغلّ **الفضل بن أبي يحي**(750هـ-751هـ/1349م-1350م) الصراع الواقع بين أبي الحسن وابنه أبي عنان(749هـ-759هـ/1348م-1358م) في سيطرته على تونس، وتمكّن من ذلك؛ وأخذ فيها البيعة سلطانا للدولة الحفصية بعد خروج أبي الحسن المريني منها سنة 750هـ /1349م، ونظرا لكثرة المناوئين له لم تطل مدة حكمه، ففي السنة الموالية تحالف ضدّه أبو محمد بن تافراجين مع **أبي إسحاق بن أبي يحي أبي بكر**(751هـ-

770هـ/1350م-1369م) وأطاحوا به، وبويع بعده لأبي إسحاق المذكور في جمادي الأولى سنة 751هـ /1350م[58].

لم يهدأ للمرينيين بال منذ أن أبعدهم الفضل عن إفريقية، فسعوا إلى إعادة غزوها في عهد السلطان الحفصي **أبي إسحاق بن أبي يحي أبي بكر** (751هـ-770هـ/ 1350م-1369م)، وفي بداية عهده كانت علاقته مع السلطان أبي عنان(749هـ-759هـ/1348م-1358م) وطيدة وكانت بينهما مواصلة بالهدية، لكن سرعان ما انقلبت الصداقة إلى عداوة، وذلك بعد رفْض ابنة السلطان أبي إسحاق الزواج بأبي عنان، عندها تحرّك الأخير بجيشه قاصدا غزو قسنطينة[59]، تمهيدا للسيطرة على كامل الدولة وذلك سنة 758هـ /1357م[60]، ولم يستطع دخولها في البداية ، فضرب عليها حصارا متينا في عشرين من رجب سنة 758هـ/1357م[61]، وضيَّق الخناق عليها، وقطع عنها المؤونة والماء، واستمرت على ذلك الحال طيلة تسعة أشهر، حتى استسلم أهلها فدخلها الأمير أبو عنان في نفس السنة، ونزعها من أميرها آنذاك أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله (أخو أبو زيد 750هـ-772هـ/1349م-1371م)، الذي لجأ على إثر الهجوم إلى القصبة وسلّم المدينة تسليماً شريفاً، وقد استقبله أبو عنان استقبالاً حسناً، وبعث به إلى "سبتة" عن طريق البحر 758هـ/1356م[62]،فسقط بذلك آخر معقل للمقاومة الحفصية هناك، واستولى أبو عنان ثانية على الجهة الغربية للدولة الحفصية، ودخل المدينة في 12 شعبان 758هـ/1356م وعيَّن على رأس قسنطينة الشيخ المريني "ابن خلّوف"، ومنها سار إلى تونس التي حاصرها واحتلّها في العام نفسه، واضطُرّ السلطان الحفصي عندها للفرار نحو بلاد الجريد ليتّجه منها صوب قسنطينة، وحاول الحفصيون استرجاع ما فقدوه فلم يستطيعوا وباءت جميع محاولاتهم بالفشل[63].

وهكذا سقطت قسنطينة -في عهد السلطان أبي إسحاق- في يد المرينيين، الذين أضفوا عليها طابعا ثقافيا جديدا، حيث رافق حملتهم عدّد من الفقهاء،

وأصحاب العلم، وقد عيَّن أبو عنان عند ملكه للمدينة حسن بن خلف بن باديس(ت 784هـ/1382م) خطيبا بالمدينة كما قرَّب حاكمها الفقيه حسن بن خلف الله بن قنفذ(عاش في القرن8هـ/14م) وعيَّنه في خدمته، وبذلك استمال بهذين الفقيهين أهل قسنطينة، لكونهما من كبار العلماء و بيوتات المدينة عندهم ولهما أبلغ التأثير عليهم[64].

لقد وصف هذه الغزوة المؤرخ ابن الحاج النميري(ت774هـ/1372م) الذي كان مرافقا لحملة أبي عنان، حيث أشار إلى قوة الجيش عدّة وعتادا وتنظيما، كما أشار إلى أن الجيش كان في صحبته العلماء والفقهاء والكتّاب، وفرقة موسيقية، ومجموعة من الجواري والمغنّيات، فكأنّها كانت رحلة موكب سلطان تحمل من الأبّهة والعظمة ما يبعدها عن الحملات العسكرية المعروفة[65] ،واسترسل ابن الحاج في وصف هذا الغزو واستعظمه، ومدح على إثره مدينة قسنطينة وأبرَزَ مكانتها، معرّجاً على ذلك بقوله: "بلدةٌ لم ترض لأعطافها غير الحساب برداً، لا طلبت لأجياد شرفاتها غير النجوم الزواهر عقداً، قسنطينة وما أدراك ما قسنطينة، ومرقى يقف دونه النجم الطائر، وممّن يلتقي على مركز مرافق البادي والحاضر"[66] كما ذكر قصيداً لأحد الشعراء المرينيين وهو أحمد بن يحي بن عبد الله المنان يُشيد بفتح المرينيين لها يقول فيه–من البحر الوافر–:

هي الأسعد اللاّتي علاك لها قطب هو النصر سام شهبه الدهر لا تَخْبُ

هو الفتح سنَّتْه السعود فلم يكن ليشرع فيه السمر أو تشهر القضب

وسل بلطيف الصُّنع في أمر فتحها قسنطينة لما تَبَاهى بها العجب

سموْتَ إليها في جيوشك دارعا كأنك بدْرُ التمّ تكنفه الشُّهب

فأذعنْتَ الأعداء ذلاً وأيْقنوا بأنك من تدْنُوا له العجم والعرب

ولامتْ شعابا من قسنطينة اعتدى وما كان يرجَى أن يُلَمَّ بها شُعب

هناءً بها أمُّ المعاقل منعةً قسنطينة ما أن يُرَاعَ لها سرب

تعاظمَ كفْرا أن يُقال لها حمًى وتأْنَف زهوًا أن يُرَامَ لها قرْب[67]

وأنشد الفقيه العدل الكاتب أبو العباس بن النعمان قصيدة أولها-من البحر الطويل-:

ولما أتى مولى الملوك بأسْرهم وذخْرهم ما أن سواك لهم ذخر
وأقبلت الأبطال من كل جانب ودار بها من حينه العسكر المجر
وأقبل في يوم النزال أميرها على قَدَمٍ يسعى وقد خانه الصبر
فأوسعه المولى الخليفة فارس إمام الهدى عفوا وإن عظم الوزر
فهذي بلاد الشرق أعطتْ قيادتها وما بقيت إلا بلاد بها الكفر
فمهنِّيك أنَّ الله أتاك نصره وملَّكَكَ الدنيا امتنانا له الشكر

ومن قصيدة أخرى للكاتب أبي عبد الله بن حزب الله يقول فيها-من البحر الطويل- :

قسنطينة لما تمنَّع أهلها قضى الله أن يشقُّوا زمانا ولم تشقا
وحين تراءت غرَّة النصر أذعنوا وطارت لنور العدل أنفسهم سُبَّقًا
فكلهم قد أطلقوا من عِقَالهم وحصرهم لما رأوا وجهك الطلقا[68]

وقال الشاعر الكاتب الفقيه أبو محمد بن البرطال في الفتح أيضا-من البحر البسيط-:

هي السعادة قد طوَّقتها حُلَلاً فأدَّت لك العزُّ في الدارين والأملا
هذي قسنطينة نالت مسرَّتها منكم وسكانها قد أصبحوا خولا
من بعد ما ضاق ذرعا بالحصار لها جميعهم ورأوا باب الرَّدَى قبلا

وهنَّأ الشاعر أبو علي عمر الزناتي السلطان أبا الحسن بالفتح بشعر قال فيه-من البحر المتقارب-:

أمولاي دامت لك التهنئة بعزِّ الفتوح الوسام الشِّيه
هنيئا بفتح قسنطينة وفي فتحها للمُنى توطية
وقد عمّ عفوك في أهلها ولو شئت عمَّتهم التردية
وهذا يشير مشير بما يواليه من فتح افريقية [69]

ومن منطلق الأبيات الشعرية التي أعطت واقعا حقيقيا لما جرى من أحداث فترة الغزو، فنجد أن السلطان المريني أبي عنان(749هـ-759هـ/1348م-1358م) رغم إدخاله الرعب في قلوب السكان بهجومه الجيّاش، إلاّ أنّه غيَّر من سياسته معهم، بعد أن أحكم سيطرته على البلاد وعلى أهلها، فقد كان أوّل ما صنعه أن عيّن مالاً كافياً وأمر بأن يُصدّق جميعه على الضعفاء والمساكين من أهل قسنطينة وبجاية فأكرمهم وقرَّبهم بذلك واستعمل بعض علمائهم -كما ذ كرنا- [70].

بعد عودة أبي عنان إلى فاس، حاول الحفصيون استرداد مجد قسنطينة الضائع وإرثها الحفصي المفقود، ففي سنة 760هـ/1358م تحرّك إليها الأمير المخلوع أبو إسحاق بن أبي يحي أبي بكر (751هـ-770هـ/1350م-1369م) وأقام عليها حصارا وكان فيها بنو مرين[71]، ثم رحل منها إلى بجاية وأقام بها خمس سنين، وكان الشيخ ابن تافراجين يمُدّه من تونس بالمال والعتاد والجند، حتّى دخلها صلحًا، وأميرها آنذاك ابن أخيه أبي عبد الله بن أبي زكريا وذلك سنة 765هـ/1363م ، ثمّ قفل راجعاً إلى تونس برّا، وردّ الأمير أبا عبد الله إلى ولايته.

3- أمير قسنطينة أبو العباس يسيطر على السلطنة الحفصية :

أثناء عودة أبو إسحاق من بجاية إلى تونس نزل بقسنطينة على أميرها ابن أخيه أبي العباس، ثم ارتحل إلى مقصده واستقلّ بالأمر حتّى وفاته سنة 770هـ/1368م، عندها خلفه ابنه خالد وبويع له في نفس السنة، ولحداثة سنِّه لم يرض أمراء بني حفص بتوليته، كما أنه استعمل على دولته حاجبه أحمد بن إبراهيم المالقي، الذي أظهر سوء تدبير هلكت على إثره الدولة[72]، فثار عليه الأمير **أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن أبي يحي أبي بكر** من قسنطينة المحروسة -التي هي مسقط رأسه- [73]وقد كان قبل ظهوره عند بني مرين بالمغرب، ولما سقطت دولة أبي عنان وقُتل الأخير على يد وزيره أبي الحسن بن عمر القمُّودي سنة 771هـ/1369م؛ بعث الوزير أبو الحسن أبا

العباس المذكور إلى بلاد المغرب الأوسط، فملك أبو العباس زمام الأمور بها، بدْءًا بالسيطرة على مدينة قسنطينة التي دخلها في رمضان 771هـ / أفريل 1370م، ثم أُستُدعي بعدها إلى تونس التي سيطر عليها الثائرون الناقمون على السلطان خالد بن أبي إسحاق(770هـ-772هـ/1368م-1370م)، فنزل عليهم وبويع له بها في 12ربيع الأول 772هـ / 3نوفمبر1370م[74].

وبعد أن أصبح أبو العباس المذكور (772هـ-796هـ/1370م-1393م)على رأس الدولة الحفصية؛ قرَّب إليه وجوه بلد قسنطينة التي هي مسقط رأسه وموضع تربيته، فكانت علاقته معهم مبنية على الودِّ والاحترام، وكان معه ببلاطه بالحضرة تونس أربعة من كبار مشايخ المدينة؛ وهم الشيخ الوزير أبو الحسن أبو عبد الله ابن أبي هلال الهنتاتي[75] (ت864هـ/1459م) وشقيقه الشيخ الحاج أبو عبد الله محمد-وكلاهما قسنطينيان بالولادة- والكاتب أبو إسحاق إبراهيم بن الفقيه أبو محمد عبد الكريم بن الكماد(عاش في القرن 8هـ/14م) وغيرهم[76].

كما كان من كتَّابه الفقيه أبو زكريا يحي بن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن وحَّاد الكومي القسنطيني(عاش في القرن 8هـ/14م) وهو أوَّل من كتب له، ثم كتب له من بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن الفقيه أبي الفضل قاسم بن الشيخ الفقيه أبي زيد عبد الرحمان بن الحجر(عاش في القرن 8هـ/14م)وهو من بيتات قسنطينة وأعيانها، وهكذا كان علماء قسنطينة في خدمة السلاطين الحفصيين عرفوا بالأمانة والتمكّن فقرّبهم الأمراء ووظّفوهم في خدمتهم[77].

أما قسنطينة في عهد السلطان أبي العباس المذكور فقد كانت في يد **القائد فارح** (772هـ- 779هـ /1370م- 1377م) وكانت قصبتها في يد **القائد بشير**، لكن بعد مدة وجيزة استقلَّ القائد بشير بكل البلد وأحوازها، ودامت له سبع سنين على محبّة وشكر أهلها له، وتوفّي بمرض أصابه سنة779هـ/1377م، وقد أعادها السلطان أبو العباس بعده إلى الأمراء

الحفصيين حيث كتبها لابنه **أبي إسحاق**(779هـ-793هـ/1370م-1384م) وأوصاه بوصايا حسنة قبل أن يوجّهه إلى إمارتها.

وعندما حلّ الأمير أبو إسحاق بمدينة قسنطينة، قام بتقديم العلماء والفقهاء وأعلى من مكانتهم عنده ، كما وضع الفقيه أبو علي حسن بن خلف الله بن باديس[78](ت784هـ/1382م) قاضيا عليها سنة 778هـ/1369م، وذلك تطبيقا لوصية السلطان أبي العباس له، وابن باديس هذا هو من علماء البيت الباديسي، وقد أحسن أبو إسحاق السّيرة وعمل بما جاء في وصية والده، وسَيَرَتْ هِمّته إلى حضور مجلس العلم في الجامع الأعظم بقصبة قسنطينة، وبقي حميد السيرة إلى أن تُـوفّي في شوال من سنة 793هـ/1390م، ودُفن بمسجد القصبة، ليتولّى بعده قسنطينة كاتبه الفقيه إبراهيم بن الكاتب أبي يعقوب يوسف بن القائد إبراهيم الغمّاري[79].

4-قسنطينة في عهد أبي فارس بين الحركات الانفصالية والصراع مع الزيانيين:

لما دخل عهد **أبي فارس عبد العزيز** المدعو عزّوز (796هـ - 837 هـ /1393- 1433م) عرفت الدولة نوعا من الاستقرار، مما جعل السلطان يفكر في توسيع نفوذه على حساب الزيانيين فتحيّن لهم الفرصة ونهض بجيشه نحو تلمسان سنة 827هـ/1424م وحجَّته في ذلك سيرة السلطان الزياني السيئة ونقمة العامة عليه واستنجاد بعضهم بالسلطان الحفصي، ولم يرجع من المغرب الأقصى حتى بسط نفوذه على فاس، وضمن طاعة وولاء السلطان الزياني أبي العباس عبد الله (827هـ.875 هـ /1424م - 1470م)، وبعدها أصبح اسم أبو فارس يُذكر على منابر تلمسان وفاس وغرناطة[80]، وقد اعتمد أبو فارس في معظم هجوماته وتحرّكاته على إقليم قسنطينة، وذلك بحُكْم حدودية موقعها مع الزيانيين من جهة، وقوّة حاميتها من جهة أخرى، وقد عيّن عليها السلطان أبو فارس أخاه الأمير **أبا بكر بن المرحوم أبي العباس**

(796هـ-798هـ/1393م-1395م) وكان السلطان أبو العباس قد كتب مرسوماً له بذلك قبل وفاته 796هـ/1393م[81]، لكن عندما توجَّه هذا الأخير إليها وجد قائدها الفقيه **إبراهيم بن القائد إبراهيم**(ت798هـ/1395م) قد أغلق عليه أبوابها، فاستعصت عليه، ولم يستطع دخولها إلا بعد حصارها وإخضاع حاميها على فتحها له، ودخلها يوم الخميس غرة شعبان 796هـ/1393م، وبعد دخوله المدينة جمع الناس وطلب منهم مبايعته، بعد ما بلغه وفاة والده في السنة المذكورة، وحصل بذلك على المبايعة الأولى سلطانا للدولة الحفصية، وبذلك أعلن انفصاله رسميا على سلطة الأمير أبي فارس[82].

استغلّ كاتب قسنطينة أحمد بن الكماد وضع المدينة، فغدر بصاحبها أبي بكر، واتصل بأبي عبد الله محمد صاحب بونة وحثّه على ملك قسنطينة وإفشال حركة التمرد بها، فتوجّه الأخير إليها ونزل على أبوابها، وحاصرها بدءا من يوم الخميس 6 ذي القعدة 796هـ /1393م ومنع عنها المؤونة وقطع أشجارها ورماها بالحجارة الثقيلة، ولما لم يستطع دخولها وكثُر عليه الإنفاق أثناء الحصار، رجع عنها بعد مدة خمس وسبعين يوما[83]، ثم عاد في السنة الموالية وكثُر بطْشه، ولم يستطع السلطان أبو فارس نفسه السكوت على أفعاله تلك بالمدينة -التي تعلّق قلبه بها- فتحرَّك له وكفَّه عن أفعاله تلك وأعاده إلى بونة، لكنه فرَّ إلى المغرب خوفا من بطش السلطان به، فدخل السلطان أبو فارس بونة، ونظَّم أمور الإمارة بها وأمَّن أهلها، وعند ذلك وصله أخوه الأمير أبو بكر من قسنطينة، واعتذر له عمَّا بَدَرَ منه من عصيان، فقبل اعتذاره وردّه إلى أعماله 20 رمضان797هـ /1394م، بعد أن كتب أبو بكر بخطّة خلع نفسه، وانصرف السلطان إلى حاضرته[84].

وبعد وصوله ومكوثه بها مدّة عاد لخيانته من جديد، وأعلن الخلافة لنفسه وأقرّ اسمه في الخطبة وذلك يوم الجمعة 12 صفر 798هـ / 1395م[85]وأجبر أهل البلد على تجديد البيعة له،وهذا الجبْر ناتج عن عدم ثقة أهل البلد فيه

لأنهم أدركوا نواياه ومصالحه في ذلك، لذلك كَثُرت عليه الاضطرابات بالمدينة، وخرج عليه أهلها، واختلف عليه الأعراب، ولما رأى هروب الأمر منه وانقلاب الأحوال عليه استنجد بالسلطان نفسه، وطلب منه التوسّط في تهدئة أهل قسنطينة الثائرين عليه، معتذرا له عن خيانته للمرة الثانية، لكنّ حِلم الخليفة كان أكبر، حيث قبِل اعتذاره، وأرسل له الشيخ أبا عبد الله محمد بن أبي هلال الهنتاتي (ت864هـ/1459م) -وهو من وجوه بلد قسنطينة وأعيانها-فنفّذ الأخير وصيّة السلطان أبي فارس ورغبة الأمير أبي بكر معًا، وكتب كتابا يقِرّ فيه أبا بكر على المدينة من جديد وذلك في جمادي الثانية سنة 798هـ/1395م[86]، ولما خرج أبو بكر من أزمته تلك، حنَّ إلى خيانته المعهودة للمرة الثالثة، وهذه المرة بتحريضٍ من نائبه على البلد الفقيه إبراهيم بن القائد(ت798هـ/1395م) ، وعند ذلك تحرّك له السلطان بنفسه وحاصره بالمدينة، وضيّق عليه الخناق، لكنّه رفع النقمة على الأرض والأهل فكان دخوله إليها دخول الفاتح المنتصر يوم السبت 10رمضان 798هـ /1395م[87]بعد حصار لها دام حوالي عشرين يوما، وعندها قصد الأمير أبو بكر القصبة، وتحصّن بها، فحاصره السلطان وقبض عليه وزجّ به في السّجن ثم قتل فيما بعد[88].

لقد كان هذا العصيان هو الثالث من نوعه في تاريخ قسنطينة الحفصي، وكلّ تمرّد وعصيان لا دخْل لأهل المدينة فيه، حيث كان أصحاب التمرّد مَوَالٍ من قِبَل أمرائهم، وقد قال ابن قنفذ عن ذلك:".... أن مدينة قسنطينة منذ زمانها بلد سلطنة لا بلد مشيخة، ومن ارتفع من أهلها فهو بترفيع من ملكها"[89]. وهكذا خلّص السلطان أهل المدينة من حالة الفوضى والانقلابات، وبسط الأمن والاستقرار، ورحّب أهلها بالسلطان الذي دخلها ومكث بها نحو شهر، رمّم ما أفسدته الفتن والحروب ومهّد أمرها لقائده المملوك **"القائد نبيل"** (798هـ-804هـ/ 1395 م-1401م) وعيّن على قصبتها الشيخ **أبا الفضل بلقاسم بن تافراجين[90]**، فهدأت أوضاع البلد وحسنت سيرة القائدين

عند أهل المدينة، وبعد مدة استقل القائد نبيل بالبلد وتمهّدت له في خمس سنين.

لكن سرعان ما بدأ الفساد يسري في أمور البلد وذلك بسبب تعيين القائد "نبيل" بطانة سوء في خدمته، ومنهم قاضي البلد "ابن الحجاج" الذي كان يقبل الرشاوى ويعمل بغير الشرع[91]، ففسدت أوضاع البلد واضطربت أحوالها وعادت لما كانت عليه، الأمر الذي أدى لتدخل السلطان أبي فارس من جديد، فعزل مملوكه القائد نبيل وأقرَّ مكانه القائد **أبا النصر ظافر** وذلك في جمادي الأولى 804هـ/1401م، فدخلت المدينة بعدها عصر حكم المماليك وينهي حكم أبناء السلاطين[92]، وقد أصلح القائد أبو النصر قسنطينة، وغيّر أحوالها، وأوقف عليها فرسانا ورجالا للقيام بشؤونها، وقاوم برأيه وحكمته العرب، وأغلق باب التقرُّب للسلطان، وعظَّم الشّريعة وثبّت الأمور السّلطانية بها[93].

وبعد القائد نبيل تأمّر على قسنطينة **الحاج أبو عبد الله محمد الدهان**(804هـ-830هـ/1401م-1429م)، الذي خرج عن طوع السلطان وأظهر بطشه وطغيانه، وبلغ من العتوّ، واقتناء الأموال، ومعارضة ولاَّة الأمر، وعدم الانقياد لهم ما بلغ، فأرسل له أبو فارس شيخ دولته ابن عبد العزيز[94] (ت838هـ/1434م) صحْبة الأمير المنتصر ابن المولى أبي عبد الله المنصور بن السلطان أبي فارس من أجل القبض عليه، وذلك في ذي القعدة من عام 830هـ/1429م[95]،وتمَّ سجنه بالقصبة بتونس، وتأمَّر بعده القائد **"جاء الخير"**(830هـ-833هـ/1429م-1432م)، هذا الأخير الذي اعتمد عليه أبو فارس كثيرا في استعماله للسيطرة على الزيانيين، وكان يبعثه أيضا مع جيشه لتأديب سلاطين بني زيان الناقضين لبيعته، وأكد على اعتماده في كل مواجهاته ضد الزيانيين على بلد قسنطينة، إذ كان له بالمدينة برج مراقبة لتقصّي تحرُّكات العدو، كما كانت المدينة أيضا نقطة انطلاق جيوشه[96].

أما داخليا فلم تستقر أوضاع قسنطينة في عهد القائد "جاء الخير"، حيث استغلّ بعض المناوئين له من عرب الذواودة صراعه مع الزيانيين، و قلبوا عليه أهل المدينة وحرّضوهم على الانقلاب، لأنه أبطل عليهم الأموال التي كانوا يأخذونها من خزانة المدينة على عهد أميرهم السابق، وقد حدث له معهم معارك قُتل في آخرها في 28 جمادي الآخرة 833هـ/1432م، عندها عيّن السلطان مملوكه"**محمود**"(833هـ-837هـ/1432م-1436م) على رأس حامية قسنطينة فدخلها في 12 رجب من العام المذكور.[97]

5- قسنطينة أواخر العهد الحفصي:

بوفاة السلطان أبي فارس عزوز في 837هـ/1433م، خلفه حفيده المولى **أبو عبد الله محمد المنتصر**، الذي أمر بكتْم وفاة جدّه السلطان أبي فارس وأُشِيع فقط نبأ مرضه بين العامّة، ريثما يهيئ البلاد للبيعة له، فجاب من أجل ذلك الأقاليم، وأعلن البيعة العامة وهو بقسنطينة فبايعه أهلها، ثم وردت عليه بيعة الحضرة تونس فاستبشر بها خيرا، وقُرِئت على الملأ بالجامع الكبير بالمدينة[98]، ثم عقد على المدينة لشقيقه المولى **أبي عمرو عثمان** وأمره بدخولها فدخلها في 13 ذي الحجة 837هـ/1433م وعزل عنها قائدها "محمود"، ثم ارتحل السلطان عنها إلى محلّته بتونس في غرة محرم سنة 838هـ/1434م[99].

ولم يطل عهد المنتصر طويلا حتى اضطربت عليه أحوال الدولة، وعجز عن مداراة الأعراب الثائرين عليه، فاضطُرَّ لاستدعاء أخيه أمير قسنطينة أبي عمرو عثمان، والذي هبَّ لنجدته والمدافعة على ملك آبائه وأجداده الذي يهدِّده اجتياح الأعراب من الضواحي، وعقد أبو عمرو على المدينة مزواره القائد **أبا علي منصور** المعروف بالمزوار وذلك سنة 838هـ/1434م، وسرعان ما صرفه عنها، ليعيِّن عليها بدلا منه القائد **نبيل بن أبي قطاية**(838هـ-856هـ/1434م-1452م) فصرفه إليها وأمره بحفظها، وفي خضم تلك

الاضطرابات قُتل السلطان المنتصر وبويع لأخيه أبي عمرو عثمان يوم وفاة شقيقه 12صفر 839هـ/1437م[100].

ولم ينس السلطان أبو عمرو قسنطينة وأهلها بعد تولّيه السلطة، حيث كان معظم رجال دولته من أهلها، بدْءا بالقائد أبي علي منصور، إضافة إلى قضاة الجماعة بحضرته، أوَّلهم الشيخ الأجل أبو القاسم بن سالم الوشتاتي القسنطيني(ت874هـ/1469م)[101] الذي تولّى بعد ذلك إفتاء وخطابة جامع الزيتونة، كما عُيِّن أيضا مدرِّسا بمدرسة الشمَّاعين، وكذلك قاضي الأنكحة بحضرته الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد القسنطيني (ت 864هـ /1459م) كما عمِل أبو العباس أيضا خطيبا بجامع أبي محمد بالمحلَّة ، ومفتيا به .كما قدَّم على قضاء قسنطينة الفقيه الشيخ محمد الزنديوي(ت874هـ/1469م) ثم نُقِل إلى خطط الحضرة بتونس؛ حيث تولّى بها التدريس في مدرسة المعرض ثم الشمَّاعين والخطابة بجامع التوفيق، والفتيا به ثم القضاء ببلد باجة، وتولّى بعده الفقيه أبو عبد الله محمد الغافقي قضاء قسنطينة[102]، ثم عُزِل منها سنة 863هـ/1458م، وحُوّل إلى خطابة جامع باب الجزيرة بتونس والفتيا به، ثم التدريس بمدرسة ابن تافراجين بتونس، ليتولّى بعده الفقيه محمد الجباس(ت870هـ/1465م) قضاء المدينة حتى وفاته بقسنطينة سنة 870هـ /1465م ليعوّضه الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد العلّوسي[103].

وعلى عهد أبي عمرو عثمان حاول أمير بجاية علي بن أبي فارس الإستيلاء على قسنطينة، لكنه لم يتمكن من الدخول إليها بسبب المقاومة الشديدة التي أبداها أهلها، بقيادة "نبيل بن أبي قطاية" الذي استطاع حماية قسنطينة، وبدهائه تمكّن من الاستقلال عن السلطة المركزية بتونس ونقض بيعة السلطان أبي عمرو[104]، وقد ضرب السكة بإسمه، لكن أهلها أنكروا عليه ذلك فثاروا عليه مستغلّين غزوه لبسكرة[105] ، وأغلقوا أبواب المدينة عليه، ثمَّ قبض عليه السلطان وأدخله السجن، لكنه استخدمه بعد ذلك في إعادة فتح المدينة التي

خرجت عن سلطة يده، بعد أن زوّده بالرجال والأموال من أجل إعادتها لسلطته، وسبب ذلك أنّ أهل المدينة سئموا أمراء بني حفص الذين لا يسعون إلاّ وراء مصالحهم ولا ينقادون إلاّ لأهوائهم، فحاصر القائد نبيل المدينة حتّى دخلها دخول الحاقد الناقم المنتقم، الآخذ بالثأر، فنكّل بأهلها وأعدم كثيراً من أعيان البلد ووجهائه، الأمر الذي أثار حفيظة القسنطينيين، فحاصروا قصبته وقتلوا الكثير من أتباعه، وتوفّي هو أثناء الحصار[106]. وعاد القائد أبو علي المنصور المزوار لحكم قسنطينة من جديد بعد القائد نبيل وذلك سنة 856هـ/1452م، ثم صُرِف عنها ووُلي بجاية و عوّضه ابنه القائد فارح (856هـ-864هـ/ 1452م-1459م)على قسنطينة في نفس السنة، ثم عزل السلطان القائد فارح سنة 864هـ/1459م وعيَّن على المدينة مكانه القائد **ظافر بن جاء الخير** سنة 864هـ/1459م وتوفّي هذا الأخير بالقصبة في العام الموالي أي سنة 865هـ/ 1460م، وعُيّن خلفا له القائد **رمضان الشارب** ثم عُزل في حينه، وخلفه **الحاج عبد الرحمان الفتوحي** أوائل سنة 866هـ/1461م[107]. وفي هذه السنة ملك الأمير محمد بن محمد بن أبي ثابت مدينة تلمسان وأخرج عنها صاحبها عمَّ أبيه السلطان أبي العباس أحمد بن أبي حمُّو الموالي للحفصيين، ولما سمع المولى السلطان بذلك جدَّد حركته من حضرته، معتمدا في ذلك على قسنطينة[108] التي نزل بها بجيوش جرارة، واتجه بها إلى تلمسان واسترجعها، معتمدا في ذلك على وجوه البلد وفقهائه الذين استمالهم إليه، وأقرَّ محمد بن ثابت المذكور على تلمسان بعد اعتذاره له، ثم قفل السلطان راجعا إلى تونس سنة 867 هـ/1462م، وأثناء رجوعه عقد في طريقه على قسنطينة لحفيده **أبي عبد الله محمد المنتصر** بن ولي عهده أبي عبد الله محمد المسعود، وصرفه إليها سنة 867هـ/1462م وجعل بين يديه القائد أبا علي منصور الصبان مزوارا والقائد بشير قائدا بالبلد[109]، وفي سنة 869هـ/1464م بلغ السلطان نبأ وقوع فتنة الذواودة بتدبير من شيخهم نصر بن صولة، الذي أوقع بالقائد منصور الصبان مزوار قسنطينة وأخذ بعض

محلته، فبعث على إثرها السلطان ولي عهده أبا عبد الله محمد المسعود في عسكر عظيم وأعادوا للمدينة استقرارها وأمنها، وأقام بها مدة ثم قفل راجعا للحضرة وبقيت المدينة تحت سلطة الأمير أبي عبد الله محمد المنتصر[110]. ويعدُّ المنتصر آخر من حكم قسنطينة من زمرة الأمراء الحفصيين، حيث دخلت المدينة بعده عصرا مظلما من الصراعات الداخلية وكثر الاقتتال على السلطة، وسئم أهلها حكم الحفصيين لما عانوه من آخر حكامهم، حتى بقيت المدينة مدّة طويلة بدون وال يحكم فيها وجهاء البلد وأعيانهم ولا عجب في ذاك ففيهم الأهل لذلك، واستمرت بما هي عليه إلى أن بعث أحد الأمراء الحفصيين إليها والٍ اسمه "**الناصر**" فقُتل هذا الأخير، فبُعث إليها آخر فكان له نفس المصير، وهذا دلالة رغبة أهل قسنطينة في الانفصال عن تونس، فأصبحت آخر العهد الحفصي مقبرة لأمراء الأسرة الحفصية بعد أن كانت مقرّ أمنهم.

ولم يزل الحفصيون حكَّاما لجزء من المغرب الأوسط إلى أن دهَم الضّعف دولتهم ونخر الخلاف والتفرّق عظمها، وظهر في الولاّة والرّؤساء حبّ التّرف والإسراف، فذهب ملكهم وضاعت هيبتهم، فاستغل أعداؤهم الصليبيون ذلك ودخلوا بالمغرب في حروب صليبية جديدة، استهلّت هذه المرحلة بهجوم لويس التاسع عليها وكذا صاحب صقلية وذهاب الأسبان بالمغرب واحتلالهم المرسى ووهران 910هـ/ 1504م ومن ورائها سقطت معظم مدن المغرب الأوسط[111]، وفي هذا الظّرف العصيب خرج والي الجزائر المقيم بقسنطينة متواريا إلى قلعة بني عبّاس- بضواحي الجزائر- فاستقرّ بها إلى ظهور الأتراك العثمانيين، كما تمكّن البرتغاليون بعدها من احتلال بعض المراكز الهامة بالشّمال الإفريقي، وأضحت الأراضي الداخلية نهباً متنازعا بين الأعراب والقبائل البربرية المستقلة، التي كانت تأبى الخضوع لهذه القبائل والطّاعة لنظام الدولة المركزية الحاكمة ،ومنها قبائل ناحية قسنطينة، التي ظلت في حالة حرب وصراع مع السلطة المركزية، لاسيما في إقليم قسنطينة و بجاية، وكان كل ذلك سببا في تدخل الأتراك العثمانيين في المدينة[112].

وقد أرّخ العالم الفكوني القسنطيني الشيخ عبد الكريم(ت1073هـ/1662م) صاحب منشور الهداية[113] بدقة لهذه المرحلة. وتعود أولى المحاولات العثمانية للسيطرة على إقليم الشرق الجزائري وحاضرته قسنطينة حسب بعض الدراسات المختصة، كما جاء في "تاريخ بايات قسنطينة" لفايسيت"VAYSSETTES"[114]، إلى سنة 934هـ/1527م، وهو مجهود تركي لم يعقبه سوى استقرار ظرفي منذ سنوات الحملات التي قادها " قارة حسن" مساعد "خير الدين باشا بربروس"(938هـ-953هـ/1531م-1546م)داخل بايلك الشرق الجزائري، ويجب انتظار تاريخ941هـ/ 1534م أي موعد الإنزال الذي قامت به القوات العثمانية بعنابة، حتى تسترجع قسنطينة ارتباطها بهم بعد فاصل حكم حفصي دام اثنتي عشرة سنة، ويظهر انقسام البيوتات العلمية داخل قسنطينة إلى شقّين، بيوتات محافظة، تشبّثت بولائها القديم للحفصيين؛ وتقوده عائلة عبد المؤمن؛ والثاني منفتح على العثمانيين ومساند لحضورهم؛ وقد تزعّمه البيت الفكوني[115].

الهوامش والإحالات:

(1)- ابن الشماع (أبو عبد الله محمد بن أحمد حيا سنة تأليف الكتاب 861هـ/1457م): الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، ص 54.

(2)- عبد الحميد حاجيات " عنابة في عهد الحفصيين "، **مجلة الأصالة**،(تصدر عن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية)، مطبعة البعث ، قسنطينة، 1976، العدد 35/34،ص75.

(3)- ابن قنفذ: الفارسية، ص108.

(4)- المصدر نفسه، ص108.

(5)- المصدر نفسه ، ص 93.

(6)- عبد العزيز فيلالي: قسنطينة(تاريخ-معالم-حضارة)، طبعة دار الهدى، عين مليلة، 2007، ص71.

(7)- ابن الشماع: المصدر السابق ، ص60.

(8)- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث للنشر والتوزيع ، لبنان، ط1، 1992، ج2/ص207.

9 - Dournos,A:kitab tarikh Constantine,par EL hadj Ahmed Elmobarek ,Revue Africaine ,op,cit, p272.

(10)- وفي ذلك اقتباس بالقرآن الكريم وتمثيل بالريح التي أرسلها الله على قوم عاد في قوله تعالى:" وَفِي عَادٍ إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيهِم الرِّيحَ العَقِيم " وهي كناية عن قوة النصر التي تشبه قوة ريح عاد الصرصر. ينظر القرآن الكريم: سورة الذاريات، آية: 41.

(11)- ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ،تونس، 1968، ص130.

(12)- ابن قنفذ: الفارسية، ص 139.

(13)- المصدر نفسه، ص140.

(14)- روبار برونشفيك: تاريخ افريقية في العهد الحفصي(من القرن7هـ/ 13م إلى القرن10هـ/ 15م) ترجمة حمادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988،ج1/ص114.

(15)- هذه الفتنة ظهرت سنة 681هـ/1282م عندما ظهر أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي في بني "دباب" وادّعى أنه الفضل بن يحي الواثق، وأنه فرّ من السجن وصدّقه الدبابيون وناصروه ، وكان الفضل قد قتل بتونس فسيطر على طرابلس ثم قابس وجربة والحامة وتوزر وقفصة معظم المناطق الجنوبية للسلطة الحفصية، ثم سيطر على القيروان والمهدية وسوسة ولم تبق غير تونس التي فرّ منها

السلطان أبو إسحاق إلى قسنطينة، وخلع السلطان نفسه وبايع لابنه أبي فارس صاحب بجاية لكنه لم يستطع القضاء على الدعي فقتِل ومعه العديد من إخوته، وسيطر الدعي على بجاية وقتل السلطان أبو إسحاق، وفرّ ابنه أبو زكريا المذكور إلى تلمسان. وكانت دولة الدعي هذا سنة وثلاثة أشهر، حتى قضى عليها الأمير أبو حفص عمر بن أبي زكريا، عندها رجع الأمير أبو زكريا بن أبي إسحاق وحكم بجاية وقسنطينة في السنة المذكورة . ينظر ابن قنفذ: الفارسية، ص 141 – 143وما بعدها.

(16)- ابن قنفذ: الفارسية، ص 146.

(17)- المصدر نفسه، ص146.كما ينظر ابن الشماع : المصدر السابق، ص82.

(18)- ابن قنفذ: الفارسية، ص 148.

(19)- المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(20)- قد تكون تلك مبالغة من ابن قنفذ خاصة لما نعرف من قربه للبلاط الحفصي، أو أن السلطان كان يتظاهر لكسب العامة ورجال التصوف. ينظر المصدر نفسه، ص148.

(21)- ابن قنفذ: الفارسية، ص 148.

(22)- المصدر نفسه، ص 149-148.

(23)- الغبريني هو الفقيه المحدث الجليل الشهير الفاضل قاضي الجماعة ببجاية أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني صاحب عنوان الدراية وغيره، استشهد سنة 704هـ/1304م.ينظر ابن قنفذ: الوفيات،تحقيق عادل نويهض ، منشورات دار الآفاق الجديدة ،بيروت ، ط3 ، 1980، ص338.

(24)- ابن قنفذ: الفارسية، ص149

(25)- المصدر نفسه، ص 149. كما ينظر الغبريني: المصدر السابق، ص 24.

(26)- ابن قنفذ : الفارسية ، ص148.

(27)- المصدر نفسه، ص155.

(28)- نفسه، ص156.كما ينظر عبد العزيز فيلالي : قسنطينة، ص72.

(29)- ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 156.

(30)- عبد العزيز فيلالي: قسنطينة، ص 64-65.

(31)- ابن الشماع : المصدر السابق، ص84.

(32)- ابن الشماع : المصدر السابق، ص87. وعند ابن قنفذ في الفارسية بويع في 711هـ/1311م ، يُنظر المصدر نفسه، ص 164.

(33)- ولد السلطان أبو بكر يحي بن أبي زكريا بن أبي إسحاق بن أبي زكريا يحي الأول بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص بمدينة قسنطينة في شهر شعبان سنة 692هـ/1292م. فهو قسنطيني الولادة والنشأة وبذلك كان فضله على قسنطينة كثيرا. ينظر أبو عبد الله الزركشي(حيّا سنة 894هـ/1488م): تاريخ الدواتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضود،المكتبة العتيقة تونس،1966، ص66.

(34)- مؤسس دولتهم يغمراسن بن زيان بتلمسان سنة 633هـ /1235م وقد عاشت هذه الدولة نحو ثلاث قرون من الزمن إلى أن سقطت في يد الأتراك سنة 962هـ /1554م.

(35)- ابن قنفذ: الفارسية، ص 162.

(36)- المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(37)- نفسه، نفس الصفحة.

(38)- لم يتسنَّ لي الحصول على ترجمة لهذه الشخصيات التاريخية في كتب التراجم المتوفرة لدي ولا تاريخ وفاة غير ما ذكره ابن قنفذ في فارسيته، ص166.

(39)- ابن قنفذ: الفارسية، ص 163.

(40)- المصدر نفسه، ص165.

(41)- لم يذكر ابن قنفذ سنة التولية ولكنه أشار يوم وفاة هذا الأخير إلى أن أهل قسنطينة قد نعموا بالرخاء والسعادة والسرور مدة خمس سنين على عهده.

ومع أن وفاته كانت سنة 739هـ/1338م، لذلك نرجّح أنّ ولايته للمدينة كانت سنة734هـ/1333م. ينظر المصدر نفسه ، ص167.

(42)- ابن قنفذ: الفارسية، ص166.

(43)- لم نجد في كتاب الوفيات لابن قنفذ هذه التسمية (حسن بن خلف الله بن القنفذ) وعلى الأرجح أن يكون نفسه حسن بن علي بن القنفذ المتوفى سنة 750هـ /1349م وهو ما يوافق معاصره ابن باديس المتوفَّ سنة 787هـ/1385م.

(44)- المصدر نفسه، ص166..

(45)- نفسه، ص 167.

(46)- نفسه، ص 168.

(47)- نفسه، ص169.كما ينظر عبد العزيز فيلالي : قسنطينة، ص77.

(48)- الزركشي:المصدر السابق، ص80.

(49)- المصدر نفسه، ص82.

(50)- عبد الحميد حاجيات: عنابة في العهد الحفصي،ص 80.

(51)- عند الزركشي اسم وزيره حمو العشري. ينظر تاريخ الدولتين، ص83.وعند ابن قنفذ في الفارسية اسمه "حمُّو العسري" ، ينظر ص170.

(52)- ابن الشماع : المصدر السابق، ص94.

(53)- الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضود ، المكتبة العتيقة ، تونس ، 1966، ص83.

(54)- محمد بن محمد الأندلسي (الوزير السراج): الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تقديم محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970، ج7/ص154.

(55)- ابن قنفذ: الفارسية، ص171.

(56)- ابن قنفذ: الفارسية، ص171.كما ينظر عبد العزيز فيلالي: قسنطينة، ص 78.

(57)- ابن الشماع: المصدر السابق ، ص98.

(58)- ابن قنفذ: المصدر السابق، ص174.

(59)- يحي بن خلدون(ت781هـ/1379م): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، مطبعة فونطانة ، الجزائر، 1967، ص20.

(60)- ابن قنفذ: الفارسية، ص174.

(61)- الزركشي: المصدر السابق، ص96.

(62)- الزركشي: المصدر السابق، ص97.

(63)- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ص20.

(64)- ابن الحاج النميري (ت بعد 774هـ/1372م): فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990، ص 330.

(65)- ابن الحاج : المصدر السابق ، ص86-87.

(66)- المصدر نفسه، ص 319.

(67)- ابن الحاج: المصدر السابق ، ص 320.

(68)- المصدر نفسه، ص322.

(69)- ابن الحاج: المصدر السابق، ص323.

(70)- المصدر نفسه، ص334.

(71)- الزركشي: المصدر السابق، ص99.

(72)- ابن الشماع: المصدر السابق، ص107.

(73)- ابن قنفذ: الفارسية، ص 177.

(74)- ابن الشماع: المصدر السابق، ص108.

(75)- وهو شيخ الموحدين ورث المشيخة عن أبيه توفي ليلة السبت ثالث ربيع الأول من عام 864هـ/1459م وهو نائب السلطان الحفصي بتونس وحاجب الخلافة العثمانية، ودفن بدار الولي سيدي محرز بن خلف.ينظر الزركشي: المصدر السابق، ص151.

(76)- ابن قنفذ: الفارسية، ص 177-178.

(77)- المصدر نفسه، ص 179.

(78)- وفي أواخر صفر سنة 781هـ/1372م استُعفى الفقيه ابن باديس من منصبه ذاك وقدمه السلطان ببلده قسنطينة وعين مكانه أبا عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمان البلوي ليصبح قاض للجماعة بتونس.ينظر ابن قنفذ: الفارسية ، ص187. كما ينظر الزركشي: المصدر السابق، ص110.

(79)- ابن قنفذ: المصدر السابق، ص188.

(80)- عبد العزيز فيلالي : تلمسان في العهد الزياني، ج1/ص70.

(81)- رشيد بورويبة، موسى لقبال،عبد الحميد حاجيات،محمد بلغراد: الجزائر في التاريخ،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1984، ج3/ص 71.

(82)- الزركشي : المصدر اسابق، ص117.

(83)- ابن قنفذ: الفارسية، ص 191.

(84)- ابن قنفذ: الفارسية المصدر نفسه، ص191. كما ينظر عبد العزيز فيلالي: قسنطينة، ص86.

(85)- ابن قنفذ: الفارسية، ص192.

(86)- المصدر نفسه، ص 192.

(87)- الزركشي: المصدر السابق، ص119.

(88)- ابن قنفذ: الفارسية، ص191.

(89)- المصدر نفسه، ص194.

(90)- الزركشي: المصدر السابق، ص119 . وينظر ابن قنفذ:المصدر السابق، ص194. كما ينظر عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص87.

(91)- ابن قنفذ: الفارسية، ص195.

(92)- رشيد بورويبة وآخرون : المرجع السابق، ص71.

(93)- ابن قنفذ: الفارسية، ص199.

(94)- ابن عبد العزيز هو رئيس كتاب الدولة في عهد السلطان أبي فارس عزوز وهو من أشياخ الموحدين ثار ضد السلطان، فقضى السلطان عليه وعلى ثورته وقتله مع عدد كبير من أتباعه سنة 838هـ/1434م، وخلفه على مشيخة الموحدين الشيخ أبا عبد الله محمد بن الشيخ أبي العباس أحمد بن الشيخ الوزير إبراهيم بن أبي هلال والذي توفي سنة 866هـ/1461م. ينظر الزركشي : المصدر السابق، ص132.

(95)- المصدر نفسه، 127.

(96)- نفسه، نفس الصفحة

(97)- محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص 429.

(98)- الزركشي: المصدر السابق، 131.

(99)- الزركشي: المصدر السابق،131.

(100)- عند الزركشي كان نبيل المذكور واليا على طرابلس في بداية الثلاثينات، والملاحظ هنا أن هناك تداخل كبير في أسماء القادة والولاة الذين حكموا مدينة قسنطينة فالقائد نبيل السابق الذكر تولى سنة 798هـ/1395م ليس هو العلج نبيل بن أبي قطاية المذكور الآن فنبيل هذا هو من بروفانس ويدعى أبو الفتح نبيل وهو الذي جدَّد بناء القصبة التي تقع في شمال غرب المدينة وتوفي في 11 جمادي الأولى875هـ/ 1453م في أيام السلطان الحفصي أبي عمر عثمان(839هـ 893هـ/1435- 1488م).الزركشي:المصدر السابق، ص128.كما ينظر الحسن الوزان (ليون الإفريقي ت/944هـ1537م): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة العربية للناشرين، الرباط، 1982،ج2/ص57.

(101)- الزركشي: المصدر السابق ، 134.

(102)- ينظر ترجمته في وفيات ابن قنفذ.

(103)- المصدر نفسه، ص151.

(104)- ابن الشماع: المصدر السابق، ص121.

(105)- المصدر نفسه، ص121.كما ينظر للزركشي، المصدر السابق، ص145.

(106)- إذا كان الوزان قد أشار آنفا إلى تاريخ وفاة العلج نبيل سنة 875هـ/1453م فإن الحصار يكون في السنة نفسها على اعتبار أنه توفي أثناء الحصار أي في 875هـ/1453م.أما الزركشي فيتعارض مع هذا السرد التاريخي حيث يجعل نهاية حكم القائد نبيل لقسنطينة سنة 856هـ/1452م ينظر الوزان : المصدر السابق، ج2/ص57. الزركشي: المصدر السابق، ص145. كما ينظر عبد العزيز فيلالي: قسنطينة، ص88.

(107)- الزركشي: المصدر السابق، ص152.

(108)- أثناء هذه الغزوة وفي قسنطينة سنة 866هـ/1461م توفي شيخ الموحدين أبو عبد الله محمد بن أبي هلال وحمل من قسنطينة إلى الحضرة تونس ودفن بدار الشيخ محرز بن خلف الله. ينظر الزركشي: المصدر السابق، ص152.

(109)- ويختلف ابن قنفذ عن الزركشي هنا في ضبط تقلد القائد بشير لقيادة قسنطينة، فعند ابن قنفذ كان ذلك سنة 772هـ/1370م وعند الزركشي 867هـ/1462م فهل الاختلاف يكمن في التداخل أم أن هناك شخصية اخرى بنفس الاسم تقلدت مفس المنصب عند الزركشي ونحن نعلم أن ابن قنفذ توقف في الفارسية عند سنة 804هـ/1401م. ينظر الفارسية، ص186. كما ينظر الزركشي: المصدر السابق، ص153.

(110)- الزركشي: المصدر السابق ، ص156.

(111)- رشيد بوروبية وآخرون : المرجع السابق، ص71.

(112)- محمد المهدي بن علي شغيب:أم الحواضر في الماضي والحاضر قسنطينة، مطبعة البعث ، قسنطينة ، 1980، ص 149-150.

(113)- عبد الكريم الفكون(ت1073هـ/1662م): منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1987م، ص7 وما بعدها

114- Vayssetes(M) : Histoire des Beys de Constantine In Recueil des notes et mémoires de la société archéologique de Constantine,1867.P :280

(115)- العنتري، محمد الصالح، فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1991م،ص68.